الفصل الأول

التوطئة للوصيّة

- استهلال الوصية .
- بيان ما فَعَلَ لهم .
- بيان شهادتِه لهم .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

فقه استهلالِ الوصيّة

رأس وصيّة أبي حنيفة إعرابُه عن منزلة أصحابه في قلبِه :

« أَنْتَمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي »

حين يسمعُ التلاميذُ من شيخهم هذه الكلمة النّور ماذا يبقَى فيهم من رغبةٍ عن العلم ورغبَةٍ عن مجلسِ شيخِهم؟

إنّها الكلمة التي تشحذ العزائم ، وتُبين عن عظيم رغبة الشيخِ في نفع تلامِيذه ، ورغبتِه في أن يَستودع ما مَعه مِن العلمِ والفهم في صُدورهم . وكيف أنّه غدا يستشعر أنّه ليس هو بالمتفضّل عليهم ، بل هم الذين غَدَوا متفضّلين عليْه بما لا قِبلَ له أن يحوزه لو أنفق كلَّ ما ملكتْ يمينه من متاعِ الدّنيا .

مَنْ ذا الذي بِمَلكِه أن يَحوزَ بما مَلك مسرَّةَ قلبٍ ، وجلاءَ حُزنٍ .

حين يَسمعُ التلميذُ من شيخِه أنَّ مقدِمَه عليْه ومَجلِسه بيْن يديه يذهبُ حُزن قلبه ، ويُوفد المسرَّةَ إليْه يستحيل طلبه العلم عليْه هو قرة العينِ ، وتكون الدُّنيا بما فيها لا تعدل شيئًا في منظور هذا .

كذلك يُقيمُ الشَّيخُ في صدور تلاميذه الاستمتاع بطلبِ العلم وخدمتِه . طلبُ العلم من أشق الأعمالِ على النّفوس ، ولذا يحتاج النَّاسُ فيه ما يُغري بِه .

وقد كان من فقه الإمام البخاري أن أوردَ ما رواه بسنده عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا» . في بابِ العلم وفي باب الأدب .

وهذا من البخاري بيان أنّ هذا التَّيسيرَ والتَّبشيرَ أحقُّ أمرٍ به هو طلب العلمِ والأدب ، فهذان إذا ما تيسَّرت السَّبيل إليهما ومُهّدت الطرق إليهما ، فغدا النّاس في ثبجِهِ أفواجًا فإنّ كلّ أمر من أمور حياتهم سيكون قائمًا على خالصِ العلم ووثيقه ، وكامل الأدبِ وشريفه ، فلا تجدُ منهم شيئًا إلا وهو منضبطٌ بميزان العلم الصَّحيح ، ومتحلّي بالأدبِ الجميل .

كذلك كان فقه البخاري ، فهو في إحسان تصنيفِه الأحاديث في أبواب صحيحه كان أوّل مفسّر له . وكلُّ مُحسنٍ النَّظرَ في صَحيحِ البُخاريّ يُدرك أنّ فقهه قائمٌ في تبويبه الأحاديثَ وترجمته أبوابَه .

ومن ثَم نفهم وجهًا من وجوه المعنى في قَولِه تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩)

فالربّاني من معانيه الّذي يربّي النَّاس بصغار العلم إلى أن يبلغ بها عويصها .

وهذا لا يكون إلا بعظيم من الحكمةِ وسعةِ الصدر ومحبة الخير لتلاميذه ، فيرى لهم عليْه من الفضلِ ما يُعادلُ ما له عليهم منه ، فلولاهم ما كان معلمًا النّاسَ الخير ، ولما حاز نعمة صلاة الله تعالى وملائكته ومن في السمواتِ والأرضِ عليْه ، وتلك التي مَن حرمها فقد حرم الخيرَ كلّه .

في ضوء هذا نفهم حكمة أبي حنيفة في استهلالِه وصاته بهذه الكلمة الشّفاءِ ، الكلمةِ النّورِ ، الكلمةِ المتدفّقةِ بِفَتِيّ العَزم في قلوب تلاميذه . :

«أَنْتَمْ مَسَارُّ قَلْبِي ، وَجِلاءُ حُزْنِي»

لم يشأ أبو حنيفة أن يقولَ لهم : «أنتُمْ مَسارّ قلبي» ويسكت ، بل جمع إليها : «جِلاءُ حُزْنِي» ليبين لهم أنَهم لم يحدثوا لقلبه

مسَّرة إذا انتهت عاد الحزنُ إلى قلبِه ، كلا إنّهم ليدخلون في قلبه مسرّة لا يكونُ معه للحزن بقاءٌ فِيه ، ولا سبيل له إليْه من بعدُ .

هم الأمَنَة من أن يعرفَ الحزنُ إلى قلبِه مَسرَبًا .

هم الأمان من الحزن الذي لا يثمرِ قربًا إلى الله تعالى .

ولهذا بدأ بقوله : « أنتمْ مسارّ قلبِي » بدأ بما هو جامعٌ لمطاردة الحزن واحتلال القلبِ محلّه .

لو بدأ بقولِه : « جَلاء الحُزن » لتُوهِّم أنّه بِهم غيرُ حزين ، وليس بلازمٍ أن يكون بِهم مسروراً ، فجعلهم الجامعين لقلبِه الأمرينِ معًا .

وغير خفيّ أنَّ من كان كأبي حنيفة لا يكون سرورُه بما تُسرُّ بِه الدَّهماء . إنَّ ما يُسرُّ به الرِّجالُ من أهلِ الله تعالى ورثةُ الأنبياءِ ، لن يكونَ أمرًا مِن أمورِ الدّنيا التي لاتزن عند الله تعالى جناح بعوضَة . ولا يكونُ حزنُه مِن جنسِ مَا تَحزَنُ به الدّهماءُ فمثل هذا لا يلتفِت إليه قلبُه فكيف يحزنُ به؟!!

كلَّ هذا يُبيِّنُ لك كيف كان يَرَى أبو حنيفة تلاميذَه ببصيرةٍ نافذَةٍ ، وبفراستِه الثاقبة الكاشِفةِ عن حقائق الأمر . أرأيت إلى أيِّ سماء من سماوات جليل البيان وجميله يصاعد بك استهلال أبي حنيفة خطابه تلاميذه ؟!

ويُفهم لزومًا من عبارة أبي حنيفة في تلاميذه أنّهم كانوا على قَدرٍ عَليّ من حُسن الأدبِ في طلبِ العلم تلقّيا ، وتأدبًا ؛ فَمثلُ أبي حنيفة لا يُسرّ قلبَه ويجلو حزنَه طالبُ علم لا يعدُو طلبه العلمَ حملَه وتحصيلَه ، ولا يستنبِطُ ما فيه من دقائق العلم ، ولا يستولدُ ما هو مكنونٌ في رحمِه ، ولا يثورُ دفائنه . فمزيَّة أبي حنيفة عن كثيرٍ من أقرانِه أنّه يستنبت ما هو مكنونٌ في الآياتِ والأحاديث من دفين المعاني ، ومثل أبي حنيفة لا يغمُّه شيْءٌ مثلُ مَن لا يعدُو أن يكون خزانة ما يُنتجه الآخَرون . يأبَى إلاّ أن يكونَ وعاءً أُترِعَ بمقالاتِ أهلِ العلم ، وليس له منها شيءْ . مثلُ هذا الطالب لا تقرّ به عينُ أبي حنيفة .

هذا الاستهلال من الإمام أبي حنيفة يَضَعُ في عنق طالب العلم مسؤولية أن يكون رافد إسعاد لشيخه إذ يجلس بيْن يديه يستقي منه العلم والحكمة ، وأن يكون الماحي بحسن تلقيه عنه كلَّ ما يمكن أن يحزُنَ به قلب العالم .

وحين يحرصُ طالبُ العلم أن يكون رافدَ مسرَّةٍ وماحيَ حزن يكون له من هذا ما يجعل رزقه من شحه وافرًا وجليلاً ، فإنَّ انشراح صدر الشيخ في مجلس العلم بطلابه عاملٌ فتيٌّ من عوامل توالد الأفكار وتغازرها وفتوة البصيرة ونفاذها واقتدارها على رؤية

الأشياء على حقيقتها ، فتدفق الشيخ بالعلم والحكمة إنما هو من رزق تلاميذه .

ولا ينقصُ رزقهم هذا منه كمثل ضيق صدر الشيخ بتلاميذه حين يراهم غير مقبلين على العلم وعلى حسن خدمة هذا العلم أو يراهم معلين شأن غير طلبه وخدمته عليه ، فيحقرون بذلك ما عظم الله تعالى ويعظمون ما حقَّر الله تعالى .

حين يجتهد طلاب العلم على أن يكونوا مسارَّ قلب شيخهم وجلاء حزنه فإنهم بذلك يكون لهم نصيب من فضل تجهيز الغازي في سبيل الله تعالى ومن متوبته .

أليس العالم في مجلس العلم يجاهد بالكلمة «النّور» يُبدّد بها ظلمة الجهل والحمق والاستخذاء النفسيّ الذي يركبه الفراعين فينا ليستذلوا (فاستخف قومه فأطاعوه) فينعق فيهم «لا تسمعوا لغيري» فلا يتمعر وجه واحدٍ منهم لهذا الاستعاج .

أليس العالم في مجلس العلم يجاهد بالكلمة «السيف» يقطع به عنق الباطل وأهله .

فإذا ما أعان طالبُ العلم شيخه على ذلك بحسن تلقيه وأدبه كما مُعينًا للمجاهد في سبيل الله تعالى وبيان النبوة هادٍ إلى أنْ من جهَّزَ غازيًا فقد غزا .

المبحث الثاني

فقه ما صَنع أبو حنيفةَ لتلاميذِه

ويبني أبو حنيفة على بيان منزلة تلاميذه عنده ما كان لهم منه :

«وَأَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ ، وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ ، وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ»

في هذا بيانٌ من أبي حنفية لما اجتهدَ فِي أن يُزجِيهِ إلى تلاميذه ليكونُوا أهلاً لأن يَحملوا العلم ويخـدموه ، ويخدِموا أمتهم .

أوجز فعله لهم في أمرين ، ورتب عليه أمرين :

أوجز فعله في قوله : أَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ .

وهذا من عليّ البيان ووجيزِه المُخَلِّصّ أعمالاً جسامًا لا تُنْجزُ إلا في زمنٍ مديدٍ وبِجهدٍ جهيد ، لكنّه لم يَشَأ أن يَبسُطَ العبارةَ عنه كما بسطَ الفعل ومدّه ، وذلك شأن الكبار الأماجد ، ذلك أنّه يخاطبُ من عاشَ الفعلِ ، فهُوَ بِهِ جِدُّ عليمٍ ، وهو في تلقِي وجيز

البيان جدّ بليغ ، مقتدرٌ على نثرِ المكنون ، وكشفِ المستورِ ، فكان بيانُه متآخيًا مع حالِ تلاميذه ، ومع حالِه ماجدًا ، فما هو بالذي يمتنّ ، وإنّما هو قائلٌ ذلك دَلالةً لهم على أنَّهم قد هيّئت لهم سُبلُ الفقه والفهم وأدواته ، فما عليهم إلا أن يعزمِوا أمرَهم ، وأن يمتطوا جيادَهم . أرأيت إلى أيّ أفق من جليل البيان وجميله تتسامى عبارة أبي حنيفة ؟!

وعبارة أبي حنيفة هنا جامعةٌ بيْن فقهين :

● فقـه النـزول : فقه ما نزّل من الوحي قُرآنًا وسنّة (فقه البيان ـ النّص) وهذا يفتقرُ صاحبه إلى ذكاء واقتدارٍ على التغوّر في البيان ، وتثويرِ ما هو مكنونٌ فيه ، وهذا يصلُح به صَاحبُه لأن يكونَ فقيهًا .

● وفقه التنزيل (فقه التطبيق) وهو أن يكون مليكًا لمهارات وأدوات وخبراتٍ يقتدرُ بها على فقه الواقعة التي بيْن يديه ، وعلى إنزالها على وفق ما في بيانِ الوحي من كتابِ وسنةٍ من معانِي الهدى . وهذا يحتاج إلى جليلِ الحكمةِ . وهذا ما به يكون الفقيه مفتيًا وقاضِيًا .

وما كلُّ فقيه بمالكٍ لها ، فكم مِن جامعٍ لمذاهبِ العلماء وآرائهم في القضايا والمسائل جليلها ودقيقها ، قريبها وبعيدها ،

شارِدها وواردها ثُمَّ هُو لا يملكُ من الحكمةِ التي تجعله يُنزلُ الواقِعَ على ما عنـده من العلم ، فتراه يقُـول في سياقٍ ما يُفسِدُ ولا يُصلِح .

وهذا ما نحن الآن مبتلون به ممّن يلبسون لباسَ أهلِ العلمِ ، ويخرجون علينا صباحَ مساءَ في وسائل الإعلامِ على تنوعها فتسمع منهم ما يُفسِدُ الحياةَ ولا يُصلحها .

ولَمْ يسْمَع النَّاسُ تناقضاتٍ بيْن مقالات أولئك في المسألة الواحدة كمثل ما يسمعون الآن . وما هذا إلاّ أن َمن يتكلم قد ملك شيئًا من كلامِ أهلِ العلمِ ، ولم يملك شَرْوَ نقيرٍ من الحكمة (العقل) .

ومَن كان علمُه أكبرَ مِن عقلِه أفسد ولم يُصلح .

ومَن كان عقله (حكمته) أكبرَ من علمِه كان المصلح الذي به تستقِيم حركةُ الحياةِ وتجري إلى غايتها غير عاثرة في كديةٍ غير مجازةٍ .

فنحنُ أحوج ما نكونُ إلى أن نتعلَّم التعقل والحكمة أكثر من حاجتنا إلى أن نتعلَّم العلم .

العلم قائمٌ في بطونَ الأسفارِ كلٌّ يستطيع أن يقرأ وأن يحفظ ، وأن يتصايح به على المنابر وفي وسائل الإعلام (بوق الشيطان) ،

وليستِ الحكمة والتعقّل في بطون الأسفار إنما يتعلمها التلاميذ من الجلوسِ بين يدي الأشياخ ، ومراقبةِ أحوالِهم ، ورصد تصرفاتهم والتفكّر فيها ، ومن هنا كان فضلُ العلمِ وخيرُه بالمزاحمة في مجالسِ العلماء ، وليس بقراءة الأسفارِ وحدها . فعلومُ الإسلام جميعها علوم تلقّ ثم قراءةٍ .

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩)

ولذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم عليْه الصّلاةُ والسلام قوله :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة:١٢٩)

وكان من امتنانِ الله تعالى علينا أن استجاب له عليْه الصّلاةُ والسلام :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢)

أبو حنيفة أنبأ تلاميذه أنّه هيّأَ لهم الأمرين معًا :

- هيَّأ لهم فقه ما نُزّل من الكتاب والسنة : (أَسْرَجْتُ لَكُمْ الفِقهَ) .
- وهيّأ لهم فقه التنزيل : تنزيل الواقع على العلم (أَلْجمتُه) .

فإلجام الفقه هو الحكمة التي تضبط تنزيل الواقعِ على ما في الفقه من الهدى .

اصطفى أبو حنيفة هذه الصورة الاستعارية : أَسْرَجْتُ لَكُمُ الْفِقْهَ وَأَلْجَمْتُهُ .

لك أن تجعل مناط الاستعارة قوله (الفقه) حيثُ صوره في صُورة جوادٍ فتيّ أعدّ للركـوبِ وهيّئَ لأن يُعتلى متنُه ، وأُعـدَّ له ما يمكن لراكبِه أن يتحكَّم في حركتِه وفق ما يتطلبُ الموقف .

ولك أن تجعلَ مناط الاستِعارة هو الفعل (أسرجت وألجمت): جعل ما كان منه من تيسير الفقه وتهيئته للتلقّي والفهم بمثَابةِ إسراجِ الجوادِ وتهيئته للركوبِ .

وجعل ضبطه أصولَ الفقه وقواعده ليتحكم في استنباطِ الأحكام من الكِتابِ والسُّنة وإنزال الواقع على ما فيهما من معاني الهدى ، وهو ما يسمى بفقه تنزيل الوحي على الواقع بمثابةِ إلجام الجواد وإحكام أمرِه ، فلا يبقّى للفارسِ إلا أن يمتطيّ الجواد ، ويقبضَ على لجامِه يصرفه كيف ما شاء . .

وأنتَ إذا ما نظرتَ في مَساق القول وعلِمتَ أنّ أبا حنيفةَ عامِدٌ إلى بيان ما فعلَ لتلاميذِه رأيتَ أنَّ الأقرب أنْ تجعلَ الاستعارةَ في فعلِه ، أيْ أنْ تجعلَ الاستعارةَ في قوله : (أَسرَجْتُ وأَلجَمْتُ) فتكونُ الاستعارةُ تبعيّة .

* * *

وترتب على هذا الذي أزجاه أبو حنيفة لتلاميذِه أمران

الأمرِ الأول : « وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ »

والأمر الآخر : « وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ »

هذان هُما ثمرةُ فعلِ أبي حنيفة لتلاميذه وفعلِه فيهم .

بيانُ الأمر الأول : « وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ »

أقامَهم مقامًا جعلَ النّاسَ يَتَتبّعون مواقعَ أقدامِ أولئك التَّلاميذ ، يَقتدُون بهم ثِقةً فِي صوابِ نظرِهِم ، ونفاذِ بصيرتهم وحكمة صَنيعهم ومؤانسة فقههم الواقعَ الذي هم القائمون فيه .

الشّأنُ أن يكون فهم العالم وإفهامه كما هومرتبطٌ بالوحي أصلاً ضابطًا هو أيضا بالمرتبط بواقِعهم وحركةِ حياتهم ، تنزيلاً وتطبيقًا واستثمارًا ، فلا يُحدِّثون عمّا لا يكونون قائمين فيه وبه .

فرقٌ بعيد بيْن حديثِ الشّيخ في تلاميذه يعلّمهم العلمَ والحكمةَ وحديثه في الناس يُبين لهم حكم الشَّرع فيما تجرِي به الحياة ، وفيما يُمارسُونه صَباح مساء .

الفقيهُ يكلّم تلاميذه مَثلاً في أحكامِ الرقّ والعتقِ في زماننا ، ولكنّه من الحُمق أن يكلّم النَّاس في هَذَا .

الفقيهُ فِي مجلسِ العلم بيْن تلاميذه يتدارسُ معهُم في بابِ العقيدة مثلاً «أضلولة القول بخلقِ القرآن» ومداخلها ومخارجها والفرق بين مقالةِ الأشاعرة فيها ومقالةِ المعتزلة ، ويبسط الشّبَهَ ويُفنّدها ، ويُبين عن الحق وبراهينه ، لكنّه إنْ نَبَسَ بِبِنْتِ شفةٍ في هذا بيْن النَّاسِ فإنما هو رضيع حماقةٍ ومؤذِّن فتنةٍ .

النَّاسُ إنّما يقتدون بِمَن كان ذا عِلم وحِكمةٍ ، وكانت حِكمتُه فوقَ عِلمِه . وهذا يُشيرُ إلى أنّ أبا حنيفة علَّم تلاميذه الأمرين معًا : العلمَ والحِكمةَ .

وكأنّه يحثُهم إلى أنْ يكونَ هذا مِنهاجهم في تلاميذِهم، يَعتَنُون بِتعلِيمهم العقلَ والحِكمة ، كمثل ما يُعنوْن بتعليمهم العِلم .

ومثل هذا يوجبُ أن تكونَ لطلابِ العلمِ مجالسَ خاصّة ، يُحاجزُ عنها العامَّة ، فلا تصلُح في زماننا هذا أن تُعقدَ فِي المساجدِ التي لا يحجر على مسلمٍ أن يمكث فيها ، وأن يَحضر ما يقال فيها .

مجالسُ طلبِ العلم إنما تكون في محلٍّ لا يؤذن فيه إلا لمن كان أهلاً لأن يسمعَ ، وأن يُحسن التلقّي .

وهذا يهدي إلى أنّ وسائلَ الإعلامِ لا تصلحُ لأن تكونَ بديلاً عن مجالسِ طلبِ العلم في المعاهدِ والجامعات ، بل هي تصلحُ لتثقيفِ النّاسِ وتبيين الأحكام الخاصّة بحركةِ حياتِهم . وتبيين أصول الأدبِ مع الله تعالى .

* * *

وبيانُ الأمر الآخر : « وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ » فيه إشارةٌ إلى أن مجرّد حسن التلقّي فهمًا والاجتهاد فيه لا يكفِي أن يكونَ المرْءُ معه ممَّا يُنتفعُ بِه ، فهذا شطرُ العِلم والحكمةِ ، وهو ما يُعرف بمهارة الفهم .

وثَم شطرٌ آخرُ جِدّ جليلٍ هو الّذي يجعلُ للشَّطرِ الأوَّلِ ثمَرةً يتغّذَي بها ويُستَطَبّ . إنّها مهارةُ الإفهام .

فحولة الفهم وفتوّتُه أولاً ثمّ حسن الإفهامِ ودقته ثانيًا هما اللذان يجعلان من طالبِ العلم نافعًا أمته ، ويجعلانه مِمّن يُعلّم النّاسَ الخيرَ .

تعليمُ النّاس بحاجةٍ إلى يكونَ معلّمهم مليكًا للمهارتين معًا : مهارةِ الفهمِ ومهارةِ الإفهام .

وأنتَ تسمعُ قولّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿٢﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤)

أقامَ الامتنان بنعمةِ خلقِ الإنسان بيْن الامتنان بنعمتين : نعمة تعليم القُرآن ونعمة تعليم البيان .

مِن وجُوه المعنى في قولِه تعالى : (علّم القُرآن) علّم مَصدَرَ العِلم وحسن تلقيه الفهمَ عنه ، وهذا يلتفتُ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) [1]

---

(١) في هذا إشارة إلى شابكةٍ من شوابك سورة « الرحمن » بسورة « القمر » وهل لك إلى أن تلتفت إلى العلاقة بين تسمية السورة بـ (القمر) وورودِ قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أربع مراتٍ ؟.

فتعليمه هو تيسيره للذّكر : للتلاوة والفهم . . .

وقوله : (علَّمه البيان) من وجوه المعنى علّمه الإبانة عمَّا في صدره .

وممَّا في صدرِه ما تعلَّمه من القرآن ، وهو لن يتعلم البيان إفهامًا لغيرِه إلاّ إذا كان مقتدرًا على أنْ يفهمَ عن غيرِهِ ، فإنّ الإفهامَ من الفَهمِ ، وإن الكلامَ تصويرًا عمَّا في النّفس لَمِن الكلامِ تصوّرًا وفهمًا لما يسمعُ ويقرأُ ، فمَن لَمْ يُحسنِ الفهم لن يُحسِن الإفهام .

فهو امتنانٌ بنعمَتيْن : بنِعمةِ الفَهمِ : (علّم القُـرآن) وبنعمة الإفهامِ : (علَّمَهُ البيانُ)

فقولُ أبي حنيفة : «وَيَلْتَمِسُونَ أَلْفَاظَكُمْ» فيه دلالة على أنّه كان يعلمهم بلسانِ حالِه وبلسانِ مقالِه كيف يعبّرون عمّا فهمُوا تعبيرًا محكمًا تعبيرًا يجتمعُ فيه حُسنُ الدَّلالة بما يقُوم على جنباتِه معالم تهدِي إلى المُرادِ وإن دقّ ولطفَ .

وتمامُ الدَّلالةِ حتَّى لا يكونَ البيان عاجزًا عَن حملِ كلِّ ما فِي الفُؤاد من دقائقِ العلم ، فيكون بحسنِ الدلالةِ وتمامِها بيانًا صادقًا وأمينًا .

وإحكامِ الدلالةِ تبرّجها ، فلا يكونُ بيانًا يحتملُ وجوهًا من المعنى لا يريدُها المتكلمْ ، فمن حقِّ معانيك عليْك أنْ لا تجعلَها فِي صُورة تجعلُ السَّامع يمكن أنْ يَفهم منها غيرَ المراد ، لأنّها ليست مُحكمة الدلالةِ على المعنى ، بل محتملة لوجوه لا يريدُها المتكلم .

وإحصانُ الدلالةِ وإحكامها وتبرجها إنّما يكونُ بأمورٍ عديدة منها حسنُ اختيار الكلمة ومقامِها وصياغة جملتها واختيار سِباقِها ولحاقها ، واكتنافها بما يجلّيها من القرآئن المقاليّة والحالية ، ويحكم فقه المراد منها . . .

كلُّ ذلِك إنّما هُو حَقُّ المَعنى على صَانعِه أولاً ، وحقّ السَّامعِ على المتكلّم ثانيًا .

فقولُهُ : «يَلتمسون ألفاظكم» هادٍ إلى أنّهم قد علموا حسن الإبانة وإحكام الدلالة[1] .

---

(١) لا يظننّ ظانّ أنّي أزعمُ أن أبا حنيفةَ كان يعقدُ لتلاميذه مجالس علم يتدارسون فيها أصول علم البلاغةِ العربي وقواعده وتطبيقاتِه ، فإن شيخ البلاغيين والنقاد العرب أبا عثمان الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ) ولد في العام الذي مات فيه أبو حنيفة . وإنّما أذهب إلى أنَّ أبا حنيفة كان حريصًا على تحرير مدلولات الكلم والكلام ، ويَميزُ بين صُورِها ، ويُبين عن الفُروق بين قولِ وقولٍ ، ومصطلحٍ ومصطلحٍ .

وهذا شطرُ العلم .

وكأنّ أبا حنيفة كان يعلم تلاميذه بلسانِ الحال عند بيانِه عن معانيه أصول بلاغة العالِم والفقيه ، وهي أصول ما تزال تطالب علماء علـم البلاغة العربي وطلابَه بحقها عليهم ، فإنّهم شُغلوا عنها ، حتّى ظنّ الناشئة من طلابِ علم بلاغةِ العربيةِ أنّـه ليس هذا البيان من أسفارِ الفقهاءِ فيه مشغلةٌ للعقلِ البلاغيّ ، حسبانًا منهم أن البلاغةَ لا تكون إلا حيثُ يكون التخيّل والتخييل ، وحيثُ تكون الاستعارة والتجنيس ، على الرَّغـم مِن أنَّ أبا الحسن علي ابن عيسى الرّمّانيّ (٢٩٦هـ - ٣٨٦هـ) جعل حقيقةَ البلاغة في « إيصالِ المعنَى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ . »[١] وهذا لا يلزم أن يكون فيه استعارة وتجنيس وتسجيعٍ ، وتخييلٍ ، وتمثيلٍ . . . فكم مِن آيةٍ في كتابِ الله تعالى ، ومن حديثٍ في بيان النبيّ صَلوات اللهِ وسلامُه عليْه وعلى آلِه وصحبه ليس فيه من هذا شيْءٌ ، إنّما فيه حُسنُ الدَّلالة على المعنى وتمامها وإحكامها ،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن . لأبي الحسن الرّمّانيّ . مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] تحقيق : محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام
نشر : دار المعـارف . القـاهرة . الطبعـة الثالثـة ، سـنة ١٩٧٦م . ص : ٧٥، ٧٦ .

ومطابقتها لمقتضى الحال ظاهره أو باطنه ، فيصِلُ المَعنى إلى القلبِ ويتمكّن فيه ، ويتوطَّن ، ثُمَّ يفعلُ فِيه ما يُرادُ للبيان أن يفعلَ فيه وبِه .

كان أبو حنيفة في بيانِه بليغًا ، وآية هذا ما بيْن يديك من وصيّتِه . إنك لترى فيه معالمِ الحُسن مكينةً فتيّة ، فهي عندِي من أرفع نماذج أدبِ الوصايا ، الّذي هو بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ الأدبِ الجليل في معانيه ، والجميلِ في مبانيه ، الفتيّ في أثرِه .

قوله : « وَقَدْ تَرَكْتُ النَّاسَ يَطَؤونَ أَعْقَابَكُمْ يَلتمسون ألفاظكم » هو كناية بالغة الإبانةٍ عما صَار إليه أولئك التلاميذ من جهةٍ ، وعمَّا كانوا عليْهِ من التّهيّؤ لأن يستجِيبوا لفعلِ شيخهم فيهم ، وهذا من جليلِ إكرامِ التلميذ لشيخه ، أن يُهيّئَ نفسَه لِحسن فعلِ غيثِ شيخِه فيه ، لأنَّ في هذا مِن المَسرَّةِ للشّيخ ما فيه ، وفيه حفزٌ للشيخِ على أن يُجاهد ويستفرغَ جهدَه في أن يُزجِي إليْهم فِي جلاءٍ كلَّ دقِيقةٍ ولطيفةٍ وطريفةٍ ، وأن يسوقَ إليْهم فِي رفقٍ كلَّ شاردةٍ وآبِدة .

وكلُّ مجلس علمٍ كان فيه طالبٌ نابِهٌ كان ذلك الطّالبُ نعمةً على شيخِه، بل كان هذا الطالبُ جزءًا مِن مثوبةِ الله تعالى لشيخِهِ ، عجَّلها الله تعالى له ، فينشرحُ صدرُ الشيخ ، ويعلمُ أنّ كريمَ نسبِه

لن ينقطعَ إلى يومِ القيامةِ ، وستبقَى سحائبُ الحسناتِ تهطلِ في صَحائفه إلى يومِ الدّين ما كان في مجلسِه مثل هذا الفتَى .

وكلّ عالمٍ بِكتابِ الله تعالى وبِسنّةِ رسُولِه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقُومُ في صدرِه ما رواه مسلمٌ في كتاب (الوصيّة) من صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ :

إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

هذا الحديثُ النبوي من عليّ البيان الوجيز الجامع لكل خيرٍ ، فهوأنموذج جليل لما أنعم الله تعالى به على نبيه سيدنا محمدُ صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم من نعمة جوامع الكلم :

في هذا الحديثِ من الإبانة عن عوامل إقامة المجتمعِ المسلم في أمنَةٍ من مذلةِ الفقر ، ومن صِناعةِ الشّر ، ومن غوائلِ الجهلِ .

ولو أنّ كلَّ مُسلم أحسن فقه هذا الحديث وأحسن الثقة به ، والأخذ به ، لما وجدت في هذا المجتمعِ فقيرًا معوزًا ، فأمانه الصدقةُ الجارية ، ولما وجدت فيه شرًّا ، فمهلكتُه في الولد الصالح ، ولما وجدت جاهلا ، فَأمانه منه العلم النافع .

* * *

المبحث الثالث

فقه شهادتِه لهم

مِن بعدِ أن أبانَ أبو حنيفة ما كانَ منه لتلاميذِه أبانَ عمَّا صار إليْه أولئك التلاميذُ وشَهادتِه لَهم :

«مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ»

قَضَى بأنّهم جميعًا قد بلغُوا مبلغًا تجاوزُوا به طَورَ الفقه ، وطَورَ الفتيا إلى ما هو أخطرُ منه : طورِ القضاءِ بيْن المتخاصمين .

الشَّأنُ في القاضِي أن لا يكُونَ فقيهًا أو مفتيًا فحسبُ ، بل الشّأنُ أنْ يكونَ له مِن الفِراسةِ النافذة السابغة وَمن فُتوّة البَصيرة ومنْ سُرعةِ البَديهة ، و منْ نفاذِ الحيلة ، ما يقتدر به على أن يميزَ الحقَّ من الباطلِ ، وأَن يعرفَ مكامن الشَّيطان في حجج المتخاصمين . فلا يغترّ بطلاقةِ لسان ، ولا بتدفّق بيان ولا بجهارةِ صوت ، ولا برباطة جأشٍ ، فكلُّ ذلك يُتقنُه الظّلمةُ الفجرة ، ويتوارثونَه جيلاً بعد جيلٍ . فهل تقع عينك اليوم على قاضٍ

تجاوز درجة الفقيه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل تجاوز درجة المفتي ؟ دلني عليه لأستسقى به الغمام .

أعلمهم أبو حنيفة أنّه قد اطمأن إلى ما صاروا إليه من الفقه والفهمِ ، وحسن البيانِ وحسنَ البصر ما جعلَ كلّ واحدٍ منهم أهلاً لأن يتبوّء مجلسَ القضاءِ ، فيقضي بما أنزل الله تعالى ، فينشر العدلَ .

وهذه لا يقولها أبو حنيفة على مسمعٍ من تلاميذه إلا وقد اطمأن قلبُه وعقله أن كل واحدٍ منهم قد ملك ميزانَ العدل في عقلِه وقلبِه ونفسِه ، وأن كل عوادي الحياة لا تستطيعُ أنْ يعبث بهذا الميزان ، لأنه لو ظن أن ذلك يُمكن أن يكون لما شهد له بأنَّه يصلح للقضاءِ .

ما يكون لمن كان في منزلِ أبي حنيفة من العلم والورعِ والخوفِ من الله تعالى ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله جَلَّ جَلالُهُ ـ لأن يشهدَ بما لا يكون مهيمنًا عليه علمًا نافذًا سابغًا .

شهد لهم بهذا وهو الفقيه المؤسّس للقولِ العلمي في صِفاتِ القاضي وأدبِه ، وهو بابٌ من الفقه جد جليلٍ[1] .

---

(١) هل لك أن تجود على نفسِك ببعضِ عمرك فتقرأ فصل (كتاب أدب القاضي) في كتاب المبسوط لشمس الأئمة السرخسي (ت : ٤٨٣هـ) . نشر دار المعرفة ـ بيروت . عام ١٤١٤هـ ١٦/٥٩-١١١ . ==

ولمّا كان هذا النبأُ شهادةً يشهد بها أبو حنيفة لتلاميذه كان مقتضِيًا أن تكونَ العبارةُ عنه عبارةً مقتدرةً على عظيمِ التوكيد والتقريرِ لما تتطلبه الشهادة من وثاقةٍ وصحة ، وقوة في الدَّلالة ووضوح ، فجاء بيانُه في أسلوبِ النفي والاستثناءِ .

وهو من الأساليب الفتية دلالتها على التوكيد

وأبو حنيفة في شَهادتِه هذه لتلاميذه لم يذهب إلى أن يحصر الخبرَ فيهم (يصلح للقضاءِ) لا على سبيلِ الحقيقة أو المبالغة ، وينفي ذلك عن غيرِهم ، ذلك أنَّه لا يقُول بمفهوم المخالفَة ،

==أو في كتاب تحفة الفقهاء ، لعلاء الدين السمرقندي (ت : ٥٤٠هـ). نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ـ الطبعة الثانية عام : ١٤١٤ هـ . ٣/٣٦٩- ٣٧٤ .

أو كتاب : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، لعلاء الدين الكاساني الحنفي (ت : ٥٨٧هـ) نشر : دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية عام : ١٤٠٦هـ . ٧/٢-١٧ . أو كتاب الاختيار لتعليل المختار لأبي الفضل : عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت : ٦٨٣هـ) تعليق محمود أبو دقيقة . نشر مطبعة الحلبي ـ القاهرة . نشر عام : ١٣٥٦ هـ . ٢/٨٢-٩٤ .

إنك إن فعلت علمت أين قضاؤنا وقضاتنا .

ولا يـــذهبُ إلى أنّ الاســـتثناء (النحـــوي) يُفيـــد التخصـــيص الحصريّ[1]

وقوله : «مَا مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ» يهدِي إلى أنّه بلغ بهم منزلاً يجعلهم في طور يُمكنهم أن يكونوا في غنيةٍ عنه ، وأن يكونوا أهلا لأن يجتهدوا ، ويكون له من دقيقِ النظرِ وصحيحه ما يقرنُ إلى ما لشيخهم من الرأي والنظر والاجتهاد .

ويهدِي إلى أنّه أحاطهم بما يَجْعَلُهم في أمنةٍ من معرةِ التقليدِ واقتفاء ما ليسَ لهم بِه علمٌ محققٌ .

---

(١) أسلوب الاستثناء المتصل هو عند الأصوليين المتكلمين (المالكية ، والشافعية ، والحنابلة) مفيد للحصر والقصر ، أما الأصوليون الفقهاء : الحنفية فلا يقولون بإفادة الاستثناء (النحوي) الحصر ، فهم لا يقولون بما يُعرفُ بمفهومِ المخالفة .
الاستثناء عند الحنفية من بيانِ التغيير ، وليس من بيان التخصيص ، والإخراج ، فهم لا يسمون الاستثناء النحوي استثناء التحصيل .
وعندهم أسلوب الشرط استثناء ، وهو استثناء تعطيل .
ينظر : أصول الفقه للسرخسيّ الحنفي . تصحيح أبي الوفا الأفغاني . ط : دار الكتاب العربي . عام ١٣٧٢هـ . ٤١/٢ .
والتلويح على توضيح التنقيح لصدر الشريعة تأليف سعد الدين التفتازاني . تحقيق : نجيب الماجد ، وحسين الماجد . الطبعة الأولى عام ١٤٢٦هـ المكتبة العصرية . بيروت . ٥٥/٢ .

وتلك نعمة حين يسديها الشيخ إلى تلاميذه كان كمن أسدى إليهم حريتهم ، فالتقليد إنّما هو صورة من صور العبودية العقلية والفكرية ، وهي أنكى من عبوديّة الجسد ، فكمْ من مستعبدٍ جسدُه في القرونِ الأُوَل من الإسلامِ كان هو الكاملَ الحريَّةِ العقلية والفكرية والنفسيّة ؟

أتجدُ في زمانِك هذا مَن هو أكثرُ حريَّةً عقلية وفكرية من سيدنا بلال رضي الله عنه يوم كان عبدًا في ملك يمينِ كافرٍ .

لم يستطع هذا الكافرُ الذي يملكُ أن يبيع جسدَ سيّدنا بلال رضي الله عنه حيثُ يبع عَيْرَه أن يملك عقلَه وقلبَه ونفسَه .

كان سيّدنا بلالٌ رضي الله عنه حرًّا العقلِ والقلبِ والنَّفسِ والرَّوح فاتّخذَ لنفسِه سبيلَ الحقّ ، دون رضًا من سيدِه ومالكِه .

وكَم مِن حرٍّ جسدُه في عصرِك وهو عبدُ العقلِ والقلبِ والنّفسِ ، تتلاعبُ به القُوَى السّياسية ، وعصابة العلمانيين وسحرة إبليس ، فيسحبونه من أذنه على وجهه سحبَ الشّاةِ إلى المجزر ، وهو سادرٌ في غيّه وغبائه .

والإمام أبو حنيفة حين يقضِي بأنّ كلّ واحد من أولئك التلاميذ قد صار إلى هذا الذي ذكر إنّما يقَضِي لهم بأنّهم أحقَّاءُ في أن يجتهدوا وأن يكونَ لكلٍّ رأيُه الذي يقرن برأي شيخه ، ويختار عليْه ويقدّم ، فإنّ الله تعالى يهبُ للولد ما لا يهب للوالد .

ألا تسمعُ قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩)

وهبَ لسيّدنا سُليمان من الفهمِ ما لم يهب لأبيه سيّدنا داود عليْهما الصلاةُ والسلام .

وروى البخاري في كتابِ العلم من صَحيحِه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِىَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِي» . فَوَقَعَ النَّاسُ فِى شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنَا بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هِي النَّخْلَةُ» .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَحَدَّثْتُ أَبِى بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وكَذَا .

* * *